[٢]

المسلمون والآخر..
من يعترف بمن؟.. ومن يستأصل من؟؟

المسلمون -وأحيانًا الإسلام- متهمون فى الكثير من دوائر الفكر الغربى وكل دوائر الفكر العلمانى، بالتعصب المقيت، وإنكار الآخر، وتكفير الآخرين.. ولقد شاعت وتشيع هذه الاتهامات على ألسنة وأقلام غلاة العلمانيين فى بلاد الإسلام، يستوى فى ذلك المسلمون وغير المسلمين من هؤلاء العلمانيين الغلاة..

وإذا كان تحرير وتحديد مفاهيم المصطلحات هو الطريق الآمن لأى حوار حقيقى.. فلنبدأ بتحرير مصطلح «التكفير»:

● إن الكفر هو نقيض الإيمان، فكل مؤمن بشىء هو -بالضرورة- كافر وجاحد ومنكر لنقيض هذا الشىء.. فالمؤمن بالتثليث كافر بالتوحيد.. والمؤمن بالتوحيد كافر ومنكر للتثليث.. والمؤمن بأن عزيرًا -«عزرا»- عبد الله كافر ومنكر لعقيدة أن عزيرا ابن الله -والعكس صحيح- والمنكر لكون القرآن وحيًا إلهيّاً، ومحمد ﷺ نبيّاً ورسولا، هو -بالضرورة- كافر بالإسلام دينًا سماويّاً.. وكذلك الحال فى ميدان المذاهب والفلسفات و«الأيدلوجيات».. فالمؤمن بالفاشية والنازية كافر بالديمقراطية -والعكس صحيح-.. والمؤمن بالشيوعية كافر بالليبرالية

الرأسمالية -والعكس صحيح-.. فكل مؤمن بشيء كافر بنقيضه، أى **أن كل إنسان هو -فى الحقيقة- مؤمن وكافر فى ذات الوقت..فالكفر ليس سبة ولا نقيصة بإطلاق وتعميم، ولكن المعيار فيه هو كفر بماذا؟.. وكذلك الإيمان، ليس ميزة وإيجابية بإطلاق وتعميم، وإنما العبرة فيه هو الإيمان بماذا؟..**

ولقد عبر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة، التى يجهلها البعض ويتجاهلها الكثيرون، عندما صور الإيمان والكفر وجهين لعملة واحدة، فقال: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فأين هى التهمة -إذًا- فى أن يصنف المسلمون من يكفرون بالإسلام والقرآن ورسول الإسلام ﷺ فى عداد الكافرين؟.. وألا يصنف المؤمنون بالتثليث أهل التوحيد فى عداد الكافرين بهذا التثليث؟.. بل وألا تعتبر المذاهب النصرانية الكبرى -الأرثوذكسية.. والكاثوليكية.. والبروتستانتية -المخالف لها فى «قانون إيمانها» كافرا بهذا القانون، داخلا فى «الحرمان الدينى»، الذى هو الكفر والتكفير؟!.. لقد رفض قساوسة دير سانت كاترين- بسيناء- وهم من الروم الأرثوذكس -أن يصلى بابا الفاتيكان- يوحنا بولس الثانى- داخل الدير- عند زيارته له فى فبراير سنة ٢٠٠٠م- لأنه- فى نظرهم- غير «مؤمن»!... بينما فتح رسول الإسلام ﷺ، مسجد المدينة- قبل أربعة عشر قرنًا- فصلى

فيه نصارى نجران عيد الفصح.. ومع ذلك لا يستحى غلاة العلمانيين من تخصيصهم الإسلام بهذا الابتزاز!.

تلك هى حقيقة الزيف والافتراء اللذين يخص بهما الفكر العلمانى والإعلام العالمى الإسلام والمسلمين!..

● أما تهمة «إنكار الآخر»، التى شاع ويشيع اتهام المسلمين بها، فإنها تعنى إنكار حق الآخر فى الوجود، والسعى إلى استئصاله، أو على الأقل «استثنائه» من المشاركة فى العمل العام.. وهنا يرد التساؤل- بل والتساؤل الإنكارى والاستنكارى-:

-من- فى الواقع المعاصر.. بل والقديم- الذى ينكر الآخر؟.. ومن الذى يستأصل الأخر ويستثنيه؟

إن واقع الحال المعاصر يقول- بكل ألسنة الحال والمقال- إن المسلمين هم ضحايا الإنكار والاستثناء والاستئصال.. فكثير من البلاد الإسلامية- التى أخذت بالتعددية الحزبية- تسمح بكل الأحزاب التى تمثل كل الأيديولوجيات، لكنها تستثنى الإسلاميين، الذين ينطلقون من الدعوة إلى الشريعة الإسلامية وإسلامية الدولة والقانون والاجتماع.. وكثير من المؤسسات الثقافية والفكرية، التى يقبض على زمامها العلمانيون، تجد فيها كل ألوان الطيف الفكرى والفلسفى والأيديولوجى، بينما الاستثناء والإقصاء والاستئصال خاص بالإسلاميين ومرجعية وأيديولوجية الإسلام.. وكل الدول الديمقراطية فى الغرب الديمقراطى ترضى عن نتائج الانتخابات فى العالم الإسلامى، يمينًا كان أو يسارًا توجهات الفائزين فى هذه

الانتخابات، اللهم إلا إذا جاءت صناديق الاقتراع بالإسلام والإسلاميين.. فهنا يصل الإنكار والاستئصال والإقصاء إلى حد تأييد الديمقراطية الغربية للانقلابات الفاشستية على إرادة الشعب والانتخابات الديمقراطية!..

وكذلك الحال مع الحق الفطرى والديمقراطى فى «تقرير المصير»، فهو ديمقراطى، يسعى إليه الغرب الديمقراطى، بل ويفرضه أحيانًا -كما حدث فى «تيمور الشرقية»- وسكانها أقل من مليون- لكن هذا الغرب الديمقراطى يستثنى الشعوب المسلمة من الحق الطبيعى والديمقراطى فى «تقرير المصير».. وشواهد هذا الاستثناء والإقصاء تغطى خريطة المعمورة، من كشمير، إلى الفلبين، إلى بورما، إلى البوسنة، وكوسوفا، وحتى فلسطين.. ومثل ذلك يحدث على جبهة حقوق الإنسان، فمن حق كل إنسان وشعب وأمة أن يختار القانون الذى يحكم حياته، اللهم إلا إذا كان هذا القانون هو الشريعة الإسلامية.. فهنا يصبح هذا الحق الطبيعى- فى نظر الديمقراطية الغربية والحرية الليبرالية- تطرفًا وتشددًا ورجعية و «أصولية مرذولة»، بل وانقلابًا على حقوق الإنسان؟!.

●●●

وأمام هذا النفاق الغربى والعلمانى- الذى تفوق على نفاق زعيم المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول!! لابد أن نتساءل:

- لماذا هذا الإنكار والجحود والاستثناء والإقصاء للإسلام والإسلاميين والمسلمين؟.. وهل هذا الموقف حديث؟ ونابع من

الأطماع الاستعمارية الحديثة والمعاصرة فى بلاد المسلمين؟.. أم أن لهذا الموقف جذوره فى الثقافة الغربية تجاه الآخر -عمومًا- وخاصة إذا كان هذا الآخر هو الإسلام والمسلمين؟..

العالم فى الصورة الإسلامية

إن دراسة هذه القضية المشكلة فى الثقافة الغربية، تقتضى رؤيتها مقارنة بالرؤية الإسلامية للآخر.. لا لمجرد المقارنة، وإنما ليعرف الناس من ينكر من؟.. ومن هو الذى يعترف ويتعايش مع كل الآخرين؟.. ومن الذى يجحد ويسعى لاستئصال كل الآخرين؟!.

إن الرؤية الإسلامية-الفكرية والعقدية.. والتى تجسدت فى تاريخنا الحضارى ترى أن الأصل والسنة والقانون، هو التنوع والتمايز والاختلاف.. فالواحدية والأحدية فقط للذات الإلهية، ومن عدا وما عدا الذات الإلهية يقوم على التعدد والاختلاف.. ذلك هو القانون التكوينى الذى يسود ويحكم كل عوالم المخلوقات، فى الإنسان والحيوان والنبات والجماد، وفى الأفكار والفلسفات والأيديولوجيات..

* لقد بدأت الإنسانية أمة -جماعة- واحدة، ثم صارت شعوبًا وقبائل، ليتم بينها التسابق والتدافع والتعارف ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ**﴾ [البقرة: ٢١٣]. وهذه التعددية هى سنة كونية، وآية من آيات الله، سبحانه وتعالى ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ**

وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ [الحجرات: ١٣].

● ومع سنة وقانون التعددية فى الشعوب والأمم والقبائل، ترى الصورة الإسلامية للعالم أن الأصل هو تنوع الإنسانية فى الألسنة واللغات - ومن ثَمَّ فى القوميات- وكذلك فى الأجناس والألوان.. وهو تنوع يبلغ مرتبة «الآية» من آيات الله ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين﴾ [الروم: ٢٢].

● ومع التعدد والتنوع والاختلاف فى الشعوب والأمم والجماعات.. وفى اللغات والقوميات.. وفى الأجناس والألوان.. هناك قانون وسنة وآية التنوع فى الشرائع والملل الدينية.. وفى المناهج والثقافات والحضارات ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ [المائدة: ٤٨].. فالناس سعيهم شتى ﴿إن سعيكم لشتى﴾ [الليل: ٤].. ﴿ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات﴾ [البقرة: ١٤٨]..

وهذه الصورة الإسلامية للوجود، بعوالمه المختلفة، والقائمة على التنوع والتعدد والاختلاف والتعايش والتعارف.. لم تقف عند الموقف النظرى، الذى يعترف بالآخر على مضض، والذى يضيق بواقع التعدد والاختلاف مع التسليم بواقعه ووجوده.. وإنما تبلغ هذه الصورة -فى

التحضر والرقى- حد العدل والإنصاف لهذا الآخر، على اختلاف ألوان هذا الآخر.

فعلى حين يقف إيمان اليهود عند اليهودية وحدها، مع إنكار وتكفير الآخرين.. وعلى حين تصنع مذاهب النصرانية ذلك مع كل الآخرين ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ**﴾ [البقرة:٩١]. يتفرد الإسلام والمسلمون بالاعتراف بكل الشرائع والملل وجميع النبوات والرسالات، وسائر الكتب والصحف والألواح التى مثلت وحى السماء إلى جميع الأنبياء والرسل، منذ فجر الرسالات وحتى ختام هذه الرسالات..

وفوق هذا الاعتراف، هناك القداسة والتقديس والعصمة والإجلال لكل الرسل وجميع الرسالات.. ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ**﴾ [البقرة: ٢٨٥] والقرآن وحده هو الذى يؤكد على أنه قد جاء مصدقًا لكل وحى الله إلى جميع الرسل والأنبياء.. وهو الوحيد الذى يذكر -صراحة وباللفظ- هذه الكتب السماوية- صحف إبراهيم وتوراة موسى وصحفه، وزبور داود وإنجيل عيسى - **فقانون الإيمان لدى كل ملة غير ملة الإسلام لا «يكتمل» إلا بإنكار كل الآخرين وتكفيرهم.. والإيمان الإسلامى وحده هو الذى لا يكتمل إلا إذا آمن أصحابه بكل النبوات والرسالات وكتب وشرائع هذه النبوات والرسالات.. بل ولا يكتمل هذا**

الإيمان الإسلامى إلا إذا مكن المسلمون أهل تلك الشرائع والملل من إقامة عقائدهم، المخالفة للإسلام، بل والتى تنكر وتجحد هذا الإسلام!!..

وما على الذين يريدون المقارنة بين صورة الآخر فى الثقافة الإسلامية، والعقيدة الإسلامية، والوجدان الإسلامى، ليدركوا هول البون الشاسع والتناقض الفاحش بين هذه الصورة وبين صورة الإسلام والمسلمين فى ثقافة الآخر غير المسلم.. ما على هؤلاء إلا أن ينظروا إلى صورة الآخر فى ثقافة الإسلام والمسلمين..

● فصورة موسى، عليه الصلاة والسلام، وأخيه هارون، عليه السلام، فى الثقافة الإسلامية- التى صاغها وصبغها القرآن الكريم- هى صورة حبيب الله، الذى صنعه على عينه، واستخلصه لنفسه، وجعله كليمه، واستجاب دعاءه، وسلم عليه، وجعله القوى الأمين، وآتاه الكتاب والفرقان والسلطان.. وصورة هذا الكتاب -التوراة- فى القرآن- هى صورة الإمام والرحمة والهدى والنور ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] - ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥١، ٥٢]- ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]- ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]- ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ

بنا بَصيراً (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٢٥- ٣٦] ﴿سَلامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٢٠- ١٢٢] ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣]- ﴿وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣]- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨] ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الأحقاف: ١٢]- ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا﴾ [الأنعام: ٩١]- ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٢: ٤]..

تلك هى الصورة القرآنية- التى صنعت الثقافة الإسلامية- تجاه أنبياء اليهودية وشريعتها وكتابها.. فهل يستطيع حتى أكثر حاخامات اليهودية تعصبًا، أو أشد علمانييها تحررًا أن يجد شيئًا من ذلك، أو شبيهًا بشىء من ذلك فى تصور اليهود وثقافتهم عن الآخر، وخاصة إذا كان هذا الآخر هو الإسلام والقرآن ورسول المسلمين ﷺ وأمة الإسلام وحضارتهم؟!..

إنه سؤال يتحدى أن يكون له عند اليهود جواب!..

● وكذلك الحال مع صورة الإسلام وثقافة المسلمين عن مريم، عليها السلام التى هى فى الإسلام سيدة نساء العالمين، التى أحصنت فرجها، وتنزهت

عن مطاعن الطاعنين، والتى تقبلها الله بقبول حسن، واصطفاها وسيَّدها، ﴿ ومَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ [التحريم: ١٢]- ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]- ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢]..

تلك هى صورة مريم فى العقيدة والثقافة والحضارة الإسلامية.. فأين منها صورة آل بيت رسولنا محمد ﷺ وصورة أمهات المؤمنين، فى الثقافات النصرانية، على اختلاف المذاهب والعصور والأوطان؟!

إنه سؤال يتحدى أن يجد من ينطق بجواب.. أى جواب؟!..

● ونفس الشىء مع صورة عيسى ابن مريم، عليهما السلام، فى الثقافة الإسلامية.. إنه الوجيه.. المبارك.. المؤيد بالبينات وروح القدس.. وبالكتاب والحكمة.. وبالمعجزات.. والذى عليه سلام الله يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥]- ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِى بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا

بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا (٣٢) والسلام علىَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا﴾ [مريم: ٣٠- ٣٣] ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوىٰ أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون﴾ [البقرة: ٨٧]- ﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾ [آل عمران: ٤٨]- ﴿وقفينا علىٰ آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين (٤٦) وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون (٤٧) وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾ [المائدة: ٤٦- ٤٨]- ﴿ورسولا إلىٰ بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتىٰ بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ [آل عمران: ٤٩]. .

تلك هى صورة عيسى وإنجيله -الذى يطلب القرآن من أهله أن يحتكموا إليه-.. فما هى صورة محمد ﷺ، وقرآنه الكريم فى الثقافة النصرانية واللاهوت النصرانى؟. وهل يرضى النصارى واليهود بتحكيم القرآن، كما يدعوهم القرآن إلى تحكيم التوراة والإنجيل؟!.. أم يجعلون من أنفسهم «ورقة فيتو» لتحكيم علمانية الغرب بدلا من القرآن؟!..

أسئلة تتحدى وجود من ينطق بجواب!..

الصورة الغربية للعالم

وإذا كانت هذه هى الصورة الإسلامية للوجود والعالم: التعدد. والتنوع.. والاختلاف.. والاعتراف بالآخر، على النحو الذى كاد أن يجعل «الآخر» جزءًا من «الذات».. فما هى صورة العالم فى الثقافة الغربية، وما هى حال الآخر فى ثقافة الغرب والمتغربين؟..

● إن نزعة المركزية الغربية، قد جعلت الثقافة الغربية السائدة تنكر تنوع العالم إلى حضارات متعددة ومتمايزة ومستقلة فى ثقافاتها.. فزعمت هذه المركزية أن الحضارة الغربية هى الحضارة العالمية.. وأن العلم والتحضر قد بدأ بالإغريق، وانتهى بالنهضة الغربية الحديثة.. وأن إسهامات الآخرين -وخاصة المسلمين- لا تعدو أن تكون «إسهامات» ساعى البريد، الذى نقل تراث الإغريق إلى أوربا عصر النهضة والتنوير..

وبسبب من هذه النزعة المركزية الغربية، كان الاستعمار الغربى- وهو يبيد البنى الحضارية والثقافية للشعوب والأمم التى ابتليت بهذا الاستعمار- يتقمص دور صاحب الرسالة «الحضارية والإنجاز التقدمى».. فهو الأقوى.. والأقوى هو الأصلح، والأجدر بالبقاء- وفق قاعدة وفلسفة القانون الصراعى الذى طبقه «داروين» (١٨٠٩-١٨٨٢م) فى عالم الأحياء!... فالطبيعى- وفق هذه النزعة المركزية- أن يصرع القوى الضعيف، وتزيل

الحضارة الغازية البنى الموروثة للحضارات المغزوة، لتسرث العالم، وتصبه -بالتغريب.. وأخيراً بالعولمة- فى قالب حضارى وثقافى وقيمى واحد..

● ولقد ضمن للغرب «راحة الضمير» وهو يمارس هذا العدوان على الآخر الحضارى- وبالذات الآخر الإسلامى- ذلك الميراث المشوه والعدائى الذى حفلت به ثقافته التاريخية، على اختلاف حقولها وميادينها، إزاء الإسلام ومقدساته وأمته وحضارته.. وهو الميراث الذى لا يزال فاعلا فى الإعلام الغربى.. والتعليم الغربى.. ودوائر الفكر والدراسات.. وعند صناع القرار حتى كتابة هذه السطور!..

● ففى الثقافة الشعبية الغربية تتعلم العامة من «ملحمة رولاند» - حوالى سنة ١٠٠٠م- أن المسلمين يعبدون الثالوث:

١- أبوللين Apollin.

٢- وتيرفاجنت Tervagent.

٣- ومحمد Mahamed!!.. وأن المسلمين إنما يعظمون يوم الجمعة، لأنه يوم إلهة الحب فينوس Venus.. بينما المسيحيون يعظمون يوم الأحد لأنه يوم الله!..

ولقد لعبت هذه الصور- التى شاعت فى الثقافة الشعبية- دورها فى تجييش أحقاد العامة والدهماء فى الحملات الصليبية ضد الإسلام وعالمه وأمته وحضاراته فتحدثت هذه الملحمة - «ملحمة رولاند»- عن المسلمين فقالت لهؤلاء الدهماء: «**انظروا إلى هذا الشعب الملعون! إنه شعب ملحد، لا علاقة له بالله. وسوف يمحى اسمه من فوق الأرض**

الزاخرة بالحياة، لأنه يعبد الأصنام. لا يمكن أن يكون له خلاص، لقد حكم عليه. فلنبدأ إذن تنفيذ الحكم باسم الله..»! ثم تبدأ ملاحم القتال الصليبى، بعد تلاوة هذا الذى جاء فى ملحمة «رولاند»![1]..

● ولم يكن الأمر فى دوائر الثقافة اللاهوتية خيرًا منه فى الثقافة الشعبية.. فكما يقول أحد العلماء والمفكرين الألمان: «لقد اعتبر المسيحيون الأوربيون محمدًا (ﷺ)- رجلا عاش حياة داعرة، وتجاوز خبثه كل حدود الدناءة والانحطاط.. ولم يتورع خيالهم عن الادعاء بأن رسول الإسلام كان فى الأصل كاردينالا كاثوليكيًا، تجاهلته الكنيسة فى انتخابات البابا، فقام بتأسيس طائفة ملحدة فى الشرق انتقامًا من الكنيسة. واعتبرت أوربا المسيحية، فى القرون الوسطى، محمداً المرتد الأكبر عن المسيحية، الذى يحمل وزر انقسام نصف البشرية عن الديانة المسيحية»!![2].

وها هو أكبر فلاسفة الكاثوليكية «القديس» توما الأكوينى (١٢٢٥-١٢٧٤م) يتحدث عن رسول الإسلام، فيصوره للثقافة اللاهوتية، بقوله: «لقد أغوى محمد الشعوب من خلال وعوده لها بالمتع الشهوانية.. وحرف جميع الأدلة الواردة فى التوراة والأناجيل من خلال الأوهام والخرافات التى كان يتلوها على أصحابه. ولم يؤمن برسالته إلا المتوحشون من البشر، الذين كانوا يعيشون فى البادية»!![3].

---

(١) (صورة الإسلام فى التراث الغربى) ص٢٥، ٢٦، ٤٣- تأليف: هوبرت هيركومر، جيرنوت روتر- ترجمة: ثابت عيد. تقديم: دكتور. محمد عمارة -سلسلة «فى التنوير الإسلامى» طبعة «نهضة مصر»- القاهرة سنة ١٩٩٩م.

(٢) المرجع السابق. ص ٢٣، ٢٤.

(٣) المرجع السابق. ص٣٢، ٣٣.

أما «مارتن لوثر» (١٤٨٣-١٥٤٦م)- رأس البروتستانتية-.. فهو القائل عن القرآن: «أى كتاب بغيض وفظيع وملعون هذا القرآن، المليء بالأكاذيب والخرافات والفظائع»!!..

وهو الذى يصف رسول الإسلام (ﷺ) بأنه «خادم العاهرات وصائد المومسات»!!.. كل ذلك ليجيش القساوسة والدهماء فى الحرب ضد الأتراك العثمانيين.. فيقول: «على القساوسة أن يخبطوا أمام الشعب عن فظائع محمد، حتى يزداد المسيحيون عداوة له، وأيضًا ليقوى إيمانهم بالمسيحية، ولتتضاعف جسارتهم وبسالتهم فى الحرب- ضد الأتراك- ويضحوا بأموالهم وأنفسهم»!![1]..

فهل هناك مقارنة بين ثقافة إسلامية لا يكتمل إيمان أهلها إلا بما رأينا من أوصاف قرآنية لموسى وعيسى ومريم، وبين هذه الثقافة اللاهوتية التى علقت قوة الإيمان بالمسيحية على هذا الذى وصفت به الوحى القرآنى، ونبى الإسلام؟!!..

هل هناك وجه للمقارنة؟!..

● وليس لأحد أن يقول إن هذه الصفحة من صفحات الثقافة اللاهوتية الغربية قد طويت وانقضت.. ففى مؤتمر «كولورادو»- الذى انعقد بأمريكا سنة ١٩٧٨م لتنصير المسلمين، تحدثوا عن ضرورة اختراق الإسلام، لتنصير المسلمين من خلال الثقافة الإسلامية، وبالاعتماد المتبادل مع الكنائس الوطنية فى الشرق الإسلامى، والعمالة الفنية المدنية

(١) [صورة الإسلام فى التراث الغربى]. ص ٢١.

الأجنبية فى بلادنا الإسلامية.. **لأن الإسلام - كما يقولون- «هو الدين الوحيد الذى تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية- والنظام الإسلامى هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعياً وسياسياً.. ونحن بحاجة إلى مئات المراكز، لفهم الإسلام، ولاختراقه فى صدق ودهاء»!!**[1]..

وبعد عشرين عامًا من مؤتمر «كولورادو»، تتحدث الكاثوليكية بذات اللهجة البروتستانية، فيصرح «المونسينيور جوزيبى برنادينى»- بحضرة البابا يوحنا بولس الثانى- فى مجمع الأساقفة، فيقول: «**إن العالم الإسلامى سبق أن بدأ يبسط سيطرته بفضل دولارات النفط.. وهو يبنى المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين فى الدول المسيحية، بما فى ذلك روما عاصمة المسيحية، فكيف يمكننا ألا نرى فى ذلك برنامجًا واضحًا للتوسع، وفتحًا جديدًا**»؟![2]..

وفى نفس التاريخ، يتحدث الكاردينال «بول بوبار»- مساعد البابا، ومسئول المجلس الفاتيكانى للثقافة- إلى صحيفة «الفيجارو»- الفرنسية- فيقول: «**إن الإسلام يشكل تحديًا بالنسبة لأوربا وللغرب عمومًا. وإن المرء لا يحتاج إلى أن يكون خبيرًا ضليعًا لكى يلاحظ تفاوتًا متزايداً بين معدلات النمو السكانى فى أنحاء معينة من العالم. ففى البلدان ذات الثقافة المسيحية يتراجع النمو السكانى بشكل تدريجى، بينما يحدث العكس فى البلدان**

---

(١) (التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامى)- الترجمة العربية لوثائق مؤتمر كولورادو- ص٤٥٢ طبعة مركز دراسات العالم الإسلامى. مالطا سنة ١٩٩١م.

(٢) صحيفة (الشرق الأوسط) -لندن- فى ١٣/ ١٠/ ١٩٩٩م.

الإسلامية النامية. وفى مهد المسيح يتساءل المسيحيون بقلق عما سيحمله لهم الغد، وعما إذا لم يكن موتهم مبرمجًا بشكل ما؟.. إن التحدى الذى يشكله الإسلام يكمن فى أنه دين وثقافة ومجتمع وأسلوب حياة وتفكير وتصرف، فى حين أن المسيحيين فى أوربا يميلون إلى تهميش الكنيسة أمام المجتمع، ويتناسون الصيام الذى يفرضه عليهم دينهم، وفى الوقت نفسه ينبهرون بصيام المسلمين فى شهر رمضان»![1]..

أما الأرثوذكسية الأوربية، فإنها تعبر عن موقفها من الإسلام والمسلمين بالمقابر الجماعية فى البلقان والشيشان؟!.

● بل إن الثقافة المدنية العلمانية التنويرية الغربية لم تختلف عن «الشعبية» و«اللاهوتية» فى هذا التصوير الشاذ للإسلام ومقدساته.. فالشاعر الإيطالى «دانتى» (١٢٩٥-١٣٢١م) يضع رسول الإسلام ﷺ فى الحفرة التاسعة فى ثامن حلقة من حلقات جهنم، **لأنه- بنظره التنويرى!- من أهل الشجار والنفاق، الذين تقطعت أجسادهم فى سعير «الكوميديا الإلهية»!!**[2].

أما «جوته» - الألمانى- (١٧٤٩-١٨٣٢م) فإن رسول الإسلام -عنده- **«قد نصب حول العرب غلافًا دينياً كثيفًا، وعرف كيف يحجب عنهم الأمل فى أى تقدم حقيقى»!**[3].

---

(١) صحيفة (الشرق الأوسط) -لندن- فى ١/ ١٠/ ١٩٩٩م.

(٢) (صورة الإسلام فى التراث الغربى) ص٢٤.

(٣) المرجع السابق. ص٥٧.

وإذا كان هناك من لا يزال فى حاجة إلى أدلة على الآثار السلبية لهذه الصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين فى تراث الثقافة الغربية، فى نظرة الغرب المعاصر للآخر الإسلامى، وفى التجليات التى نراها فى الإعلام الغربى.. والدراسات الغربية.. وصناعة القرار للمشروع الغربى.. فيكفى أن نقرأ للرئيس الأمريكى الأسبق «ريتشارد نيكسون»- فى كتابه (الفرصة السانحة)-: «**إن الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء.. ويتصورون أن المسلمين شعوب غير متحضرة، ودمويون، وغير منطقيين، وأن سبب اهتمامنا بهم هو أن بعض زعمائهم يسيطرون -بالمصادفة- على بعض الأماكن التى تحوى ثلثى النفط الموجود فى العالم.. وليس هناك صورة أسوأ من هذه الصورة- حتى بالنسبة للصين الشيوعية- فى ذهن وضمير المواطن الأمريكى عن العالم الإسلامى**»!![1]..

●●●

تلك هى صورة «الآخر الإسلامى» فى الثقافة الغربية الشعبية.. واللاهوتية.. والمدنية التنويرية.. وقبلها رأينا صورة «الآخر المسيحى» - «واليهودى»- فى الثقافة الإسلامية.. بل وتبلغ الصورة فى العالم الإسلامى حد «الملهاة- المأساة»: الأغلبية تعترف بالأقلية.. بينما العكس غير صحيح؟!.

---

(١) ريتشارد نيكسون (الفرصة السانحة) ص١٣٥، ١٣٨، ١٣٩ ترجمة أحمد صدقى مراد- طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م. وانظر كتابنا: (الغارة الجديدة على الإسلام) ص٨٥-٩٢- طبعة دار الرشاد- القاهرة سنة ١٩٩٨م.

فمن- بعد هذه الصور- الذى ينكر الآخر.. ويستثنيه.. ويستأصله؟..

ومن الذى ترى ثقافته العالم منتدى حضارات وثقافات وقوميات وشرائع وملل وديانات، تؤمن بها وتنتمى إليها شعوب وأمم وجماعات، أراد لها الله أن تظل دائمًا وأبدًا متنوعة ومختلفة، ليكون التدافع الحضارى والثقافى تسابقًا على طريق الخيرات؟ تتفاعل فيما هو مشترك إنسانى عام.. وتتمايز فى الهويات والثقافات؟. ومن هى الحضارة التى عاشت التعددية فى وطنها طوال تاريخها؟.. وتلك التى ضاقت حتى بالتعددية المذهبية داخل النصرانية، فخاضت الحروب الدينية التى أهلكت ٤٠٪ من شعوبها؟!

سؤال موجه إلى الغرب.. والمتغربين.. وإلى الكذبة الذين احترفوا تكرار الأكاذيب حتى كادوا أن يضعوا الإسلام- إزاء هذه القضية- فى قفص الاتهام!.

●●●